الاتجـاه الحـضـاري .. هـذه أخـطـاؤنـا ..(3) قـراءة في تبعات المواجهة مع السلطة

09-11-2002

كانت الجماعة توجه أبنائها العاملين للعلم والدراسة في الجامعات ولا ترضى منهم سوى الرقي في أعلى مراتب العلم والدرجات الأكاديمية.. لأنه لا يمكن لجماعة مؤمنة تدعي أنها مؤهلة لقيادة الأمة وليس لديها رصيد متكامل من أصحاب الكفاءات العلمية في مختلف المجالات.. ولا يمكنها أن تقود المجتمع نحو التغيير بحفنة من أشباه العلماء.. وأشباه المثقفين.. وأشباه الدعاة.. وكانت تجتهد بكل ما أوتيت من جهد وطاقة من أجل أن ترسل أبناءها المتفوقين كي يحصلوا مختلف العلوم في مختلف الجامعات العالمية بما فيها جهود الجماعة في إرسال الطلاب إلى الجامعات الإسلامية في السعودية وغيرها لتحصيل العلوم الشرعية قبل بناء الجامعة الإسلامية في قسنطينة.. وأثمرت هذه الجهود بحمد الله وتوفيقه بعد سنوات من الصبر والانتظار الطويل ببروز جيل إسلامي متدين مؤمن بشريعة الله ويملك تخصصات دقيقة وفي كل المجالات التي يحتاجها الشعب الجزائري.. وأصبح أبناء الجماعة ينافسون العلمانيين في مواقعهم ومعاقلهم ويتفوقون عليهم في المدرسة العليا للإدارة وباب الزوار.. حتى

بقلم مختاري عبدالناصر

الجـامـعـة والمـسـجـد

فهذه العناصر الخمس شكلت العوامل الرئيسية التي مهدت للصحوة الإسلامية في الجزائر. وبدأ هؤلاء الرواد وبشكل عفوي وتلقائي في بداية الامر يطورون تجربتهم ومناشطهم الدعوية ثم بشكل واع ومركز ومتبصر بفتح مسجد في كل مؤسسة تعليمية. وكما كان يقول الشيخ محمد السعيد طيب الله ثراه، وكما كان يقول الشيخ محمد السعيد طيب الله ثراه ما أقيمت بناية للعلم إلا وارتفعت بجانبها منارة ومحراب للعبادة والدعوة وتوجيه نخبة الأمة. وأصبحت بمثابة الإستراتيجية الدعوية الواعية وهي كسب الجامعة لصف الحركة الإسلامية ولصالح التيار الإسلامي وأطروحة التغيير الدعوية.

وبدأت عملية واعية رشيدة بتعميم المساجد الجامعية في كل منطقة من الوطن يفتح فيها مركز جامعي أو مؤسسة تعليم عالي أو معهد دراسات تقنية. وفي 1970 شهدت أول ظهور للحجاب الإسلامي الواعي بذاته في كلية الطب بجامعة الجزائر. طبعا المرأة الجزائرية غداة الاستقلال كانت محجبة بالفطرة وبحكم العوائد، ولكن ذلك الحجاب كان جزء من التقاليد والعرف الذي ما من شك أنه موروث إسلامي أصيل، ولكنه ليس مؤسسا في الوعي الجمعي على الرؤية الشرعية وموقف دين الله بقدر ما هو مؤسس على العرف الشعبي والموروث الثقافي. ومطلع السبعينات أيضا شهد إنشاء المساجد الجامعية وتعميمها في مختلف المراكز والمعاهد التي كانت تحتضن نخبة الشعب الجزائري وخيرة أبنائه الناشئين، وافتتحت المساجد والمصليات الجامعية في أهم المراكز مثل المعهد الوطني متعدد التقنيات بالحراش والذي يعتبر من أهم المعاهد الجامعية، وانتقلت شهرته إلى آفاق إفريقيا بما كان يستقطب من الطلاب الشباب في الدول الإفريقية عندما كانت الجزائر "قبلة الثوار"، وكذلك السانيا بوهران والحي الجامعي لابن عكنون.الداعية والجامعة والتحصيل الأكاديمي

وهذا الاهتمام بالجامعة تطور وأصبح محورا استراتيجيا في الخطة الدعوية للاتجاه الحضاري. ذلك أن العضو العامل الذي اقتنع بالخطة الدعوية في بعدها الاستراتيجي يجد نفسه ملزما بالارتقاء بمستواه العلمي في مسار تصاعدي حتى يصل إلى أعلى المستويات إذا وسعه الجهد والطاقة. وبالرغم من أن هذا الأمر قد أضفى على الجماعة طابعا نخبويا ضيق من مجالها الشعبي كما سنرى لاحقا، ولكنه كان محكوما بمعادلة الظرف التاريخي الذي كان يفرض النوعية العاملة والسرية الكبيرة حتى لا يتفكك الجهاز الإداري الحركي أو يتم اختراقه.

كانت الجماعة توجه أبنائها العاملين للعلم والدراسة في الجامعات ولا ترضى منهم سوى الرقي في أعلى مراتب العلم والدرجات الأكاديمية.. لأنه لا يمكن لجماعة مؤمنة تدعي أنها مؤهلة لقيادة الأمة وليس لديها رصيد متكامل من أصحاب الكفاءات العلمية في مختلف المجالات.. ولا يمكنها أن تقود المجتمع نحو التغيير بحفنة من أشباه العلماء.. وأشباه المثقفين.. وأشباه الدعاة.. وكانت

تجتهد بكل ما أوتيت من جهد وطاقة من أجل أن ترسل أبناءها المتفوقين كي يحصلوا مختلف العلوم في مختلف الجامعات العالمية بما فيها جهود الجماعة في إرسال الطلاب إلى الجامعات الإسلامية في السعودية وغيرها لتحصيل العلوم الشرعية قبل بناء الجامعة الإسلامية في قسنطينة.. وأثمرت هذه الجهود بحمد الله وتوفيقه بعد سنوات من الصبر والانتظار الطويل ببروز جيل إسلامي متدين مؤمن بشريعة الله ويملك تخصصات دقيقة وفي كل المجالات التي يحتاجها الشعب الجزائري.. وأصبح أبناء الجماعة ينافسون العلمانيين في مواقعهم ومعاقلهم ويتفوقون عليهم في المدرسة العليا للإدارة وباب الزوار.. حتى العلمانيون والشيوعيون أنفسهم وبالرغم من سيطرتهم على دواليب الدولة ويعبثون بأموالها الطائلة لم يحققوا هذه الإنجازات الضخمة.. ويكفي أن ننظر لرموزهم فهم لا يعدون أن يكونوا فنانيين وشعراء ورقاصين وصحفيين ومستوياتهم العلمية متدنية جدا.. وتحصيلهم الأكاديمي لا يرقى إلى عشر معشار ما بلغه أبناء الجماعة في صمت ودون ضجة أو صراخ أو عويل أو ادعاء بالتفوق.. وكان معظم الشيوعيين والعلمانيين يذهبون إلى جامعات أوروبا الشرقية التي توزع الشهادات كما توزع المخابز قطعة الرغيف.. ويهربون من التخصصات الدقيقة لأنهم لا طاقة لهم بها، وعقولهم لا تقدر عليها.. وكثير منهم كان يكتفي بسنة أو سنتين في ما بعد التدرج.. وعبر وساطات وبسبب نفوذهم داخل دواليب السلطة يصدرون الاعتراف من الهيئة الوصية وتتحول الشهادة التافهة إلى مكافئة وموازية لأرقى الشهادات الصادرة من الجامعات العريقة في الغرب.. ولو يكون هناك تدقيق في الشهادات الأكاديمية وتحقيق في هذه المسارات الملتوية سيسقط العديد من الشيوعيين والعلمانيين عن عروشهم الأكاديمية.. كما يسقط "المجاهدون" المزيفون هذه الأيام من ملفات وزارة المجاهدين..

فالمسألة أصبحت جزء من الإستراتيجية الدعوية وذلك بإمداد المجتمع بالكوادر والإطارات التي كثير منها قد تغلغل بالفعل في دواليب السلطة بدبيب النمل وفي غفلة من رجالها وخدم الدعوة خدمة جليلة دون ضجة أو عويل. والغريب أن هذه الإنجازات التاريخية الرهيبة كان ينظر لها بريبة وتحفظ لدى التنظيمات المنافسة بل البعض يعتبرها من أعمال الماسونية، أو خطط شيعية موغلة في السرية، هكذا ظلما وعدوانا دون تبين.

ومن المبكيات أن الهاشمي سحنوني غفر الله له الرجل الثالث في جبهة الإنقاذ، وهو محسوب على التيار السلفي في الجزائر، كان يتهكم على الاتجاه الحضاري في أوقات السلم، قبل أن يتم تجميد عضويته في الجبهة في أعقاب مؤتمر الوفاء، ويقول معرضا بهم مغريا الدهماء والرعاع حتى يتطاولوا عليهم: هل الصحابة يملكون شهادة جامعية؟ هل الصحابة لهم شهادة الباكالوريا؟. لأن الاتجاه الحضاري عندما ظهرت الترشيحات للانتخابات البرلمانية تقدم بأحسن الكوادر والإطارات الشابة والكفاءات، بينما السلفيون وجدوا انفسهم في حيرة، لأنهم لا يملكون هذا الرصيد من الكفاءات الدعوية والإطارات الإسلامية التي لها القدرة على خدمة بلدها..

وقد كتب أحد رؤوس السلفيين في الجزائر كلاما يبكي الحجارة من فرط قسوته وظلمه وقلبه للحقائق يحسن بنا أن نثبته في هذا المقام حتى ندرك خطورة الأطروحات السطحية في ساحة الدعوة، وخطورة المنهج الإختزالي الذي يعتبر نفسه يحتكر الحقيقة المطلقة، ولا يعترف بأي جهود دعوية أخرى سوى ما كان عليه هو من الطريق والمنهج حتى وإن أدى إلى زوال دولة الإسلام وأهله.

يقول عبد المالك الرمضاني الجزائري في واحد من أردأ الكتب السلفية التي ألفت في الساحة الإسلامية على طول وعرض العالم الإسلامي عندما كان يرد على سفر الحوالي وسلمان العودة، كي يثبت خطأهما في دفاعهما عن الجبهة الإسلامية للإنقاذ لأن الجبهة كان يسيطروا عليها القوميون "الجزأرة" حسب فهم سفر الحوالي وحسب زعم عبد المالك الرمضاني..لنقرأ هذه المقاطع المستلة من كتاب مدارك النظر ص 255-256، وهو يتحدث عن ترشيحات الجبهة الإسلامية للانتخابات:" ومن علامات استصغارهم (يقصد الاتجاه الحضاري الذي يسميه ظلما وعدونا وتنابزا بالألقاب الجزأرة) العلوم الشرعيّة أن ترى المسئولين الذين وصفتّهم ـ يا سلمان ـ لم يُختاروا على أساس درايتهم بالشرع، ولكن على أساس الدّراية بالعلوم المدنية، وهذا برز بشكل كبير جدّا حين هجمت (الجزأرة) على الجبهة، فلم نر من المرشّحين للبرلمان إلا طبيبا أو مهندسا أو رياضيا أو إداريا سياسيا، بزعم الخبرة بالعلوم المدنية، فأخّروا ذوي الشّهادات الشرعيّة خجلاً من أن تضحك عليهم الحضارة (...)". فهذا التعبير الغريب عن العقل السوي، يعكس حالة من الهستيريا ضد العلوم المعاصرة.. لأن المسألة الواضحة هو أنه يتصور البرلمان مجمع في الفقه الإسلامي.. هذا التنقص للعلوم المعاصرة، وحاملي الشهادات الجامعية سرعان ما انتقل من ميادين السلم والجدل اليومي، إلى ميادين الحرب والقتال في الجبال.. فلقد انتقل هذا الفهم الأعوج وهذا التوجيه الخبيث إلى صفوف المقاتلين.. وأصبح أوباش السلفين يثبتون على كل من يخالفهم في الجبال تهمة "الجزأرة" بمجرد أنه يملك شهادة جامعية ويقومون بتصفيته، لأنه في عرف هؤلاء العوام لا يمكن أن يكون دكتور في الرياضيات وفي نفس الوقت داعية مجاهد، ولا حامل لشهادة الماجستير في البيولوجيا وفي نفس الوقت داعية يعرف ربه ومجاهد يدافع عن دينه. وإن كان موجودا فهو مبتدع لأنه من الجزأرة، ولا بد للصف الجهادي أن يكون خالصا من المبتدعة أي حكرا على من يرفع الشعار السلفي فقط!! وهكذا سقط خيرة أبناء "الاتجاه الحضاري" في الجبال على يدي هؤلاء السلفيين وانطلاقا من هذه التخريجات الميدانية الفقهية الغريبة، والتصور لشؤون الحياة المظلم كما سنرى فيما بعد..ملتقى التعرف على الفكر الإسلامي

وفي السنة الموالية أي 1971 استولت الحكومة على ملتقى التعرف على الفكر الإسلامي، ورغم ان العملية كانت مبنية على حسابات سلطوية ضيقة حتى لا تسمح بوجود منابر مؤثرة يشارك فيها كبار المفكرين والعلماء من مختلف أرجاء العالم الإسلامي، ولكن كان ذلك الإستيلاء منحة ربانية لأن ملتقى التعرف على الفكر الإسلامي أصبح الجزء الأساسي من برنامج وزارة الشؤون الدينية ومحور نشاطها السنوي.

وأقول هنا أنه بالرغم من الشعور في ذلك الوقت بأن عملية استيعاب ملتقى الفكر الإسلامي تحت مظلة الشؤون الدينية كانت تحكمها حسابات سلطوية، لكن من الإنصاف القول أن مخالطتنا للمرحوم نايت بلقاسم آيت بلقاسم طيب الله ثراه، الذي كان وزيرا آنذاك للشؤون الدينية والأوقاف، وتعرفنا عليه من قرب، واكتشفنا صدقه وحرقته على ثوابت الشعب الجزائري، وتحوله إلى واحد من أهم الشخصيات الوطنية المدافعة عن اللغة العربية وكان حامل لواء حروف القرآن داخل مجلس الوزراء، ثم عرفناه رحمه الله من محبي مالك بن نبي وكان كثيرا ما يشيد بأفكاره ويستشهد بأقواله، ويعتبره من عباقرة المسلمين ويصنفه إلى جانب الكبار أمثال ابن خلدون والتونبي وغيرهم. وهذا ما يجعلني أميل إلى القول أن العملية لم تكن استيلاء أو سطو، بل كانت بمثابة إعطاء دفع لمشروع الملتقى، لأن إمكانيات الدولة تفوق إمكانيات الأفراد مهما كانوا مخلصين في خدمة قضيتهم. وربما أمكن الجمع بين الأمرين حيث أن السلطة الفعلية أقلقها الملتقى فأوعزت إلى وزير الشؤون الدينية لاحتضانه فكانت منحة ربانية وفتحا مبينا من حيث لا يعلم الناس.

ولقد استمر هذا اللقاء السنوي الوطني ما يزيد عن عشرين سنة إلى أن تم توقيفه بعد انقلاب 11 يناير/ جانفي 1992، لأن رؤوس العلمانيين اعتبروه مؤسسة شعبية اسلامية ممولة من خزينة الدولة وخدمت التيار الإسلامي، وليس خطاب السلطة الديني. جهد الوزير، آيت بلقاسم نايت بلقاسم رحمه الله وجزاه عن الشعب الجزائري خير الجزاء، في حشد الإمكانيات والميزانية الضخمة لإنجاح هذا الملتقى سنويا، وطبع أعماله وتوزيعها بالدينار الرمزي تعميما للفائدة على جمهور الشباب الذين فاتهم حضور أشغال الملتقى مباشرة. وقد ضم له نخبة من رواد مجسد الجامعة المركزية إلى وزارة الشؤون الدينية، الذين كانوا يشتغلون في لجنة الملتقى ويقومون بتحضير أشغاله وتنظيم لقاءاته سنويا. وكان لهذا الملتقى فضلا عن النشاط الرسمي، نشاطات موازية ليلية في الأحياء الجامعية والثانويات والمساجد والقاعات العامة. وهذا الملتقى المبارك الذي بدأ مبادرة محدودة ومتواضعة مع مالك بن نبي رحمه الله، أصبح من أشهر الملتقيات العالمية ويحاضر فيه كبار العلماء والدعاة والفلاسفة والمستشرقيين، ويتمتع جمهور الحاضرين بمطارحات مختلفة بروح علمية سامية.

وفي هذا الملتقى تعرف شباب الجزائر وربما قبل غيرهم من الشباب في كثير من بلاد المسلمين بجمهور الدعاة والعلماء الذي سجلوا أسماءهم في النصف الثاني من القرن العشرين. ومن فاته حضور الجلسات أو بعدت عليه الشقة فما عليه سوى انتظار كتب الملتقى التي تطبع فيها أعماله، ويتم توزيعها على المكتبات العامة ومكتبات الثانويات والجامعات والمساجد، فعمت الفائدة وكثر النفع وانتشرت الصحوة الواعية في مختلف الأرجاء. والمتابع المنصف يستطيع أن يلمس أثر ذلك الملتقى وتلك المحاضرات والجلسات الطيبة مع الدعاة والمشايخ وكذلك مع أساتذة الفكر والفلسفة وكبار المستشرقين، أمثال المستشرقة الألمانية الفاضلة زغريد هونكه صاحبة شمس الله تسطع على الغرب، والفيلسوف البارع رجاء جارودي، والعلامة أبو الحسن الندوي، والمشايخ الدعاة القرضاوي والغزالي والبوطي.. والأساتذة نور الدايم حاطوم، وعبد العزيز الحبحابي، وأبو السعود وغيرهم من الأساتذة والمشائخ والدعاة واللغوين والشعراء والمستشرقين وأساتذة الفلسفة..وأثر هذا الملتقى السنوي الممون من خزينة الدولة الجزائري كان عظيما أيضا باعتبار أنه ملتقى متنقل من مدينة إلى أخرى ومن عاصمة ولاية إلى أخرى، بحيث أن أهم المدن الجزائرية قد احتضنت أشغاله على الأقل مرة واحدة، وعلى كل شخص أن يتصور الأثر البالغ لمثل هذا الحشد من الدعاة والمشايخ الذين يستمروا بقاءهم لأزيد من أسبوع وكثير من شباب المدن المجاورة يقومون باستضافة الدعاة والعلماء إلى مدنهم وقراهم ومداشرهم، في أجواء احتفالية ربانية ساهمت في إنضاج الصحوة الإسلامية وتحويلها إلى حالة شعبية جماهيرية.

ومن الإنجازات التاريخية بمقاييس تلك الفترة التي تحققت هي بث محاضرات ملتقى التعرف على الفكر الإسلامي على شاشة التلفزيون لفترة قد تصل لنصف سنة وهذا أسبوعيا، تعرض فيها العديد من المحاضرات وقد كان التلفزيون أهم وسائل التثقيف. وأذكر عندما كنت صغيرا لا أفقه شيئا أستغرب لماذا والدي يحرص على سماع تلك المحاضرات وأعتبرها مفسدة لمتعة الصبى والطفولة لأنها تحرمنا من الرسوم المتحركة. ولكن بعد سنوات وعندما اصبحت أكثر وعيا بما حولي وفي سن مبكرة، أصبحت من أكثر أهلي حرصا على الإستماع لتلك المحاضرات. وكثير ما يكون موضوع المحاضرة مادة دسمة للنقاش وتبادل وجهات النظر ومحاولة شرح ما كان يقوله المحاضر مع الوالد والوالدة في تلك السنوات بعد خروجنا من مرحلة الطفولة، على الرغم من بضاعتنا العلمية المتواضعة جدا بالمقارنة مع هؤلاء الأساتذة والفلاسفة. فكانت عملية البث التلفزيوني لمحاضرات الملتقى بمثابة جامعة شعبية. ومن مفاسد النزعة الحزبية والغلو في الارتباط بالتنظيمات خصوصا في أواسط الثمانينات هو بروز الانتقادات للملتقى من الجناح الإخواني والسلفي في التيار الإسلامي. وأصبحنا نسمع أقوالا من مثل الملتقى المائع، لأنه في نظرهم لا يدعو للجهاد، وبدأ البعض يثبط عزائم الشباب حتى لا يحضروا الأشغال وذلك باتهام "جماعة الجزأرة" بالسيطرة على الملتقى، لأن ذلك الشاب الموجود في المنصة ينشط محاضرة الشيخ الغزالي أو الشيخ القرضاوي أو يجلس بجانب المستشرقة زغريد هونكه "المتبرجة" هو من "الجزأرة".. بل بعضهم استنتج بعقليته المفتونة بحب السب والتنقيص أن هذا الملتقى ماسوني لأنه يشارك فيه الشيوعيون والمسيحيون وربما حتى اليهود، وغيرها من الاتهامات التي يتفتق عنها الذهن الصبياني... ومع ذلك سيبقى ملتقى الفكر الإسلامي محطة هامة في تاريخ الحركة الإسلامية في الجزائر عموما. أول معرض للكتاب الإسلامي.

ومرة ثالثة أيضا وباقتراح من مالك بن نبي رحمه الله ينظم مسجد الجامعة لأول مرة سنة 1971 معرضا للكتاب الإسلامي في الحي الجامعي لبن عكنون بالجزائر العاصمة، وكان ذلك إيذانا ببداية انتشار الثقافة الإسلامية وتعرف الشباب على الخطاب الإسلامي، وفي نفس الوقت دخول البعد التنظيمي الواعي بنفسه بشكل أكثر دقة وتخطيط. كما قام مسجد الجامعة في السنة التي تليها بتأسيس مجلة فرنسية بعنوان ما ذا أعرف عن الإسلام؟ (Que sais-je de l’islam) وبالرغم من أن أعدادها لم تتجاوز العشرة أعداد ولكن لم يكن يخل بيت من بيوتات رواد الحركة الإسلامية من تلك الأعداد التي بارك الله فيها. ونفس السنة شهدت بعث العمل الإسلامي في الجنوب الجزائري عن طريق رواد مسجد الجامعة، وبدأت عملية فتح المساجد في الثانويات التي كانت بمثابة الجامعات في أيامنا هذه، بما كانت تزخر به من جدية وحيوية وديناميكية في أنشطة الشباب ومعارض فكرية ولوحات تعريفية بالالتزام الإسلامي. كما أن مسجد الجامعة في ذلك الوقت المبكر من الوعي الإسلامي والالتزام الحركي لم يهمل البعد العالمي في مناشطه وسجل حضوره منذ 1972 بإظهار الاهتمام بقضايا الأمة الإسلامية. فلقد شهدت تلك السنة النزاع المسلح بين باكستان والهند فقام مسجد الجامعة، وهو الغطاء التنظيمي/الإداري الذي كان ينشط من خلاله هؤلاء الرواد الأوائل بمساندة باكستان وجمع التبرعات وتسليمها للسفير الباكستاني بـالجـزائـر.

كما انطلق في تنظيم الورشات الثقافية والعلمية أثناء العطل الجامعية في الأرياف والمدن المختلفة والتي يقوم بتأطيرها كوادر الجامعة، والشباب الملتفين حول المساجد الجامعية ومساجد المعاهد المتخصصة.. كما كان يقوم بمهام محو الأمية وتقديم الخدمات الطبية وغيرها من مناشط العامة التي كان لها تأثير كبير في الأوساط الشعبية في تلك السنوات المتميزة بالبراءة، وسلامة فطرة الناس وإقبالهم الشديد على التدين والالتزام بمجرد فهمهم الفكرة الإسلامية، واستيعابهم لأبجديات التغيير الإسلامي الهادئ. وبالرغم من النهج السلمي بدأت المضايقات من بعض فلول اليسار وتعرض مسجد الجامعة المركزية في العاصمة إلى الحرق. وكتب على إثرها مالك بن نبي افتتاحية مؤثرة في مجلة "ماذا أعرف عن الإسلام" الفرنسية. والأستاذ مالك بن نبي نفسه لم يسلم من المضايقات، بل تعرض إلى اعتداء سنة 1973 مما جعل بعض محبيه يتطوعون بالحراسة عليه في بيته حتى توفاه الأجل عليه رحمة الله، وقد نمت الدعوة وأصبحت واعية بنفسها أكثر وتدرك مهامها بأوضح سبيل وطريق.